الكتب في بيان حكمة التشريع الإسلامي

المرجو بيان أسماء الكتب التي خصصت في بيان حكمة التشريع الاسلامي مما يناسب عصرنا الحاضر لاسيا في معترك الضلالات والزبوغ، وتفضلوا بالجواب.

ج – لم أطلع على كتاب يعجبني في ذلك مما يوافق حاجة هذا العصر، ولكن في المنار وتفسيره الشيء الكثير من ذلك ، ولعلنا نوفق لجمعه ، او تأليف كتاب مستقل طالما فكرنا فيه .

أسئلة أخرى من عبد القادر البعلبكي في بيروت(١)

بسم الله الرحمن الرحيم . حضرة الاستاذ الجليل السيد محمد أفندي رشيد رضا .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فإني رافع لفضيلتكم ما يأتي راجياً التكرم بالإجابة عليه :

س ١ – هل تحسين الثياب والهندام والتطيب بالروائح الزكية مع التواضع وحسن الخلق ينافي الزهد والتقوى أم لا ؟

س ٢ – هل يجوز تعليم النساء دق العود والبيانو وغير ذلك من أنواع آلات الموسيقى أم لا ؟

س ٣ – هل يجوز للرجل ان يسمع الغناء وصوت العود والبيانو وغير ذلك من المرأة الأجنبية أم لا ؟

س ٤ – هل تقبل توبة التائب إذا تاب من الذنوب الصغيرة والكبيرة كالقتل

---

(١) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ١٨٧ – ١٨٨ .

والزنا واللواط وشرب الخمر والديون والسرقة والخيانة والكذب والغش والظلم وغير ذلك ، ولا يعذب في القبر ولا في الآخرة أم لا ؟

س ٥ – أرجو من فضيلتكم أن تبينوا لنا لفظ التوبة ، وهل تصح بكل لفظ أم لا ؟ تفضلوا بالجواب ولكم الأجر والثواب .

٧٩٣

تحسين الثياب والهندام والتطييب[١]

ج ١ – تحسين الثياب والهندام والتطييب من أمور العادات المستحبة إذا لم يكن فيه محرم كثوب الحرير الخالص او مكروه كثوب الشهرة ، وهو لا ينافي الزهد لأنه عمل قلبي ولا التقوى لأنه لا معنى لها في هذا الباب إلا إتقاء الحرام .

٧٩٤

تعليم المرأة على الآلات الموسيقية[٢]

ج ٢ – من يعتقد ان العزف بما ذكر من المعازف محرم تقليداً لمن يقولون بذلك وهم جماهير فقهاء المذاهب المتبعة يلزمه تحريم تعليمه للمرأة، ومن لا يعتقد تحريمه لعدم صحة الدليل عليه عنده او لترجيحه رأي من أباحه من فقهاء الحديث والصوفية بشرطه ، لا يرى بأساً بتعليمه لامرأته او محرمه ، لأجل ترويح النفس به في بيته مثلاً، وظاهر أنه يحرم تعليمه لامرأة تريد ان تكون مطربة للسكارى والفساق او يظن ذلك فيها ، ومثل ذلك تعليم المرأة الأجنبية المستلزم للخلوة بها او رؤية ما لا يحل للرجل رؤيته منها ، وكل ما هو سبب للافتتان بها .

---

(١) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ١٨٨ .
(٢) المصدر ذاته .

٧٩٥

حضور معاهد الغناء والعزف والسكر[١]

ج ٣ – في الجواب عن السؤال الذي قبل هذا ما يعلم منه جوابه ، ومنه ان حضور معاهد الغناء والعزف والسكر المشهورة في مثل مصر وبيروت حرام .

٧٩٦

توبة التائب من جميع الذنوب[٢]

ج ٤ – التوبة واجبة من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها ، ومتى كانت صحيحة نصوحاً كانت مرجوة القبول ، ولكن حقوق العباد لا تغفر بالتوبة وحدها ، بل لا بد معها او لصحتها من ردها إلى أصحابها ان كانت أعياناً او ارضائهم في مثل الغيبة .

فعلم من هذا ان من كان لأحد عليه مال أخذه منه بغير حق ، كالسرقة والخيانة والغش والدين الربوي وغيره ، فإن توبته لا تصح من هذه الذنوب إلا إذا أرجع هذا المال إلى صاحبه او لورثته من بعده ، فإن تعذر ذلك بانقراضهم او عدم العلم بهم فليتصدق بذلك المال ، وإلا كان غاشاً نفسه وخادعاً لها بدعوى التوبة . ولا يمكننا في جواب هذا السؤال ان نبين حقيقة التوبة وشروطها بالتفصيل ، فعلى الصادق فيها ان يراجع هذه الأحكام في الكتب الخاصة بذلك ، ومن أهمها كتاب الزواجر لابن حجر المكي الهيتمي ، وأول الجزء الرابع من الاحياء للغزالي ، ومدارج السالكين لابن القيم .

---

(١) المصدر ذاته .

(٢) المصدر ذاته .

٧٩٧

ماهية التوبة[١]

ج ٥ – التوبة ليست أمراً لفظياً فيصح السؤال الأخير : هل تصح بكل لفظ أم لا ؟ وإنما هي أعمال نفسية وبدنية من فعل وترك ، والمشهور عند العلماء في تعريفها انها مركبة من ثلاثة أشياء : ١ – الندم على ما كان من اقتراف الذنب في الماضي . ٢ – تركه في الحال . ٣ – العزم على عدم العودة إليه في المستقبل . والغزالي يقول انها حقيقة مركبة من علم وحال وعمل ، أما الأول فالعلم بما ورد من الوعيد على الذنب وكونه سبباً لسخط الله وعقابه ، وأما الثاني فهو الحال الوجدانية التي يوجبها هذا العلم أي الخوف من سخط الله وعقابه ، وأما الثالث فهو العمل الذي يوجبه هذا الحال وهو ترك الذنب او الذنوب ان كانت متعددة مع العزم على عدم العودة إليه ، والاجتهاد في إزالة أثره من النفس بالعمل الصالح المضاد له الخ .

٧٩٨

الجمع بين آيات القرآن والأحاديث وأخبار الدول من الكتب[٢]

من صاحب الإمضاء أحمد بن حسن في دبي – على خليج فارس .

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى حضرة السيد محمد رشيد رضا . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد لا زال يخطر ببالي وتجول في فكري من جمعكم في المنار الأغر بين الآيات الكريمة والتفسير والأحاديث النبوية ، وبين أخبار دول أوربا وحوادث أمريكا ، فهل الجمع بين ذلك يؤدي للإهانة بالقرآن (كذا) العظيم

---

(١) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ١٨٩ .

(٢) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ١٨٩ – ١٩٠ .

وكلام النبي الكريم أم كيف ؟ الرجـــاء كشف ذلك . السائل مسترشد والسلام .

ج – هذا السؤال غريب جداً ، وتوجيهه إلي من هـذا السائل أغرب ، وأقول في جوابه (أولاً) إن إهانة القرآن والأحاديث النبوية لا تقع من مؤمن بكتاب الله وبرسوله ﷺ ، وإن وقع منه مع اعتقاده بأنه إهانة حكم بكفره ، فكيف يقع ممن نصب نفسه للدعوة إلى كتاب الله وسنـــة رسوله ﷺ والذب عنها ؟ (ثانياً) إن الجمع بين الآيات والأحاديث واخبار الأمم مؤمنها وكافرها موجود في القرآن نفسه ، وفي كتب الحديث والتفسير والتاريخ التي ألّفها كبار علماء الإسلام ، ولم ينكر ذلك أحد في يوم من الأيام بل نجد بعض كبار المفسرين حتى أنصار السنة منهم كالبغوي يذكرون في تفاسيرهم من الخرافات الاسرائيلية الموضوعة والضعيفة ما هو أولى بالانكار من ذكر أخبار الدول والأمم الصحيحة. وقد كان عملهم هذا ضاراً ولكن لا وجه لعده إهانة لكتاب الله (ثالثاً) إن ما نذكره نحن في المنار من أخبار دول أوربة وغيرها نختار منه الصحيح الذي فيه عبرة للمسلمين أو دفـــاع عنهم وعن بلادهم أو تأييد للإسلام نفسه أو ذب عنه – كما يرى السائل وغيره في هذا الجزء – وكل ذلك مما نرجو أن يثيبنا الله عليه.

٧٩٩

هل المجذوب ولي أو مجنون[١]

من أحمد محمد ثابت بالبطن تبع أبي عموري .

إلى حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد رشيد رضا .

ألتمس من فضيلتكم البيان الشافي في عدد من أعداد مجلتكم الغراء عن أمر لبس علينا .

(١) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ١٩٠ – ١٩١ .

سمعنا كثيراً من الناس يجزمون بأن المجذوب ولي بغير عمل ، لأنه جُذب من من صغره في حب الله، وقد صح حديث «رفع القلم عن ثلاث النائم حتى يستيقظ ، والمجنون حتى يفيق، والصبي حتى يبلغ» وقال تعالى: «إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

فلذا اشتبه علينا لهذه الآية الكريمة ولهذا الحديث الشريف أمر المجذوب هل هو في حكم المجنون أم لا ؟ وهل هو ولي أم لا ؟ مع كونه رفع عنه التكليف ؟ وإنا نرى ان الولاية مقام كبير فلهذا لا نعترض خوفاً من الخوض ، وهل عند أرباب الطرق شيء صحيح ورد فيه شيء عن النبي أم لا؟ أفتونا في ذلك مأجورين بارك الله فيكم وعليكم ودمتم .

ج - الولي في عرف الشرع المؤمن المتقي لله تعالى، والآية التي ذكرتموها نص في ذلك . وفي اصطلاح الصوفية تفصيل لهذا الاجمال ، ففي تعريفات السيد الجرجاني : الولي فعيل بمعنى الفاعل ، وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان ، أو بمعنى المفعول وهو من يتوالى عليه إحسان الله وإفضاله . والولي هو العارف بالله، وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات اهـ .

وقد عرّفوا الجذب الخاص عندهم بأنه جذب الله تعالى عبداً إلى حضرته . وقالوا : المجذوب من ارتضاه الحق تعالى لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه ، فحاز من المنح والمواهب ، ما فاز به بجميع المقامات والمراتب ، بلا كلفة المكاسب والمتاعب اهـ، يعنون بهذا أن الأحوال والمقامات التي تنال بسلوك طريق المعرفة بالتدريج والتنقل في المنازل قد تحصل لبعض الناس دفعة واحدة من غير طول مجاهدة للنفس بالرياضة والأوراد ، وهذا أمر ممكن وواقع إلا أنه نادر ، وإنني أعرف رجلاً كان ملحداً بشبهات طرأت عليه من اشتغاله بالفلسفة، فمرض مرضاً لم يشف منه إلا وقد شفي من داء الالحاد ، فصار صحيح الاعتقاد

محافظاً على الصلوات، متورعاً عن الشبهات ، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر ، رحمه الله تعالى . وأكثر من كانوا يعدّون من المجاذيب عقلاء علماء حكماء ، وإنما كان من غلو بعضهم في الزهد والعبادة والقشف أنْ عراهم من الشذوذ ومخالفة جماهير الناس في آدابهم ومجاملاتهم ما يعد وسوسة وخللا أو جنوناً « والجنون فنون » ، وكانوا يسمونهم الموسوسين ، ويعبرون عنهم بعقلاء المجانين ، لما يصدر عنهم من الحكم والمواعظ المعقولة أحياناً ، ومن الشذوذ أحياناً . وقد يصل بعضهم إلى درجة الجنون المطبق بحيث يؤذي الناس فعند ذلك يشدّ ويلقى في البيمارستان .

وقد غلا بعض ناشري الخرافات من المتصوفة كالشيخ الشعراني، فصار يطلق اسم المجذوب الإلهي والولي على المعتوهين في أصل خلقتهم وعلى الدجالين الادعياء المتبالهين ، واشتهر هذا بين الناس فصار سمت الولي وشعاره عندهم الوساخة والقذارة والهذيان وكشف العورة وفحش القول ، كالذين نراهم يطوفون حول الأضرحة المعبودة وهياكل الوثنية المشهورة ، وإنما هؤلاء مجاذيب الشيطان وأولياؤه ، لا أولياء الرحمن .

٨٠٠
مسألة إنشقاق القمر (١)

من الشيخ عبد الرحمن الجمجمون بكفر مجر وغيره .

مقدمة للسؤال : كتب صاحب السعادة أحمد زكي باشا الشهير مقالاً في بعض الجرائد اليومية أنكر فيه انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ ، وأنكر ما روي في انشقاقه ، وادعى أنه من رواية كعب الأحبار وأمثاله من رواة الاسرائيليات ، وأوّلَ آية أول سورة القمر بمثل ما أوّلها به بعضُ السلف والخلف خلافـــاً

---

(١) المنار ج ٣٠ (١٩٢٩) ص ٢٦١ - ٢٧٢ ؛ وص ٣٦١ - ٣٧٦ .

للجمهور ، من كون الفعل الماضي فيها « وانشق القمر » بمعنى المستقبل ، كقوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » إذ اتفقوا على أنه بمعنى « سيأتي » ، ومثله كثير في التنزيل ، ولكن كتابة أحمد زكي باشا في المسألة جاءت في سياق بحث تاريخي ، ولم تكتب بالأسلوب العلمي الإسلامي عند أهل الحديث والأصول، ولا بما اعتاده هو من تحرير المسائل التاريخية والجغرافية ، فكان فيها مؤاخذات غير أصل المسألة ، فتصدى للرد عليه كثير من علماء الأزهر وغيرهم في صحف مصر وسورية ، وكتب الينا كثيرون يسألوننا الرد عليه في الجرائد اليومية والمنار ، ومنهم من كتب شيئاً ورغب الينا في نشره ، ولكنه ليس من التحقيق الذي يليق نشره في المنار مع السكوت عنه ، ولا يحسن نشره للرد عليه . وأول من طلب منا ذلك صديقنا الشيخ عبد الرحمن الجمجموني من كفر مجر ، وذكّرنا بما كنا نشرناه في إثبات المسألة في المجلد السادس من المنار . ولما كان كل ما اطلعنا عليه من الردود على الباشا بمعزل من التحقيق في المسألة، كما كان الذي كتبه في انكارها بمعزل من التحقيق أيضاً ، رأينا ان الواجب علينا ان نكتب تفصيلاً لما أجملناه في المجلد السادس فيها ونبنيه على سؤال الجمجموني، ونبدأ بعبارتنا هنالك وهذا نصها :

ورد ذكر هذه المسألة في الجزء الثاني من المجلد السادس المؤرخ في ١٦ المحرم سنة ١٣٢١ في جواب استفتاء من علي أفندي مهيب ، الذي كان مفتشاً في إدارة مصلحة التلغراف ، وهو الآن سكرتير وزارة المواصلات ، سأل فيه عما صح من معجزات نبينا ﷺ لاختلاف الناس فيه ، وهذا نص المسألة من تلك الفتوى (ص ٦٨ م ٦) .

« ومن المروي في الصحيحين خبر انشقاق القمر ، روياه كغيرهما عن جماعة من الصحابة ، ودفع العلماء ما اعترض به من ان ذلك لو وقع لعرفه أهل الآفاق ونقلوه بالتواتر وإن لم يذكروا سببه : بأنه كان لحظة وقت نوم الناس وغفلتهم ، وأن القمر لا يرى في جميع الأقطار في وقت واحد لاختلاف المطالع ، وإن

بعض المشركين لما قالوا : هذا سحر ابن أبي كبشة انتظروا السُّفّار فجاؤا فأخبروا بأنهم رأوا القمر من ليلتهم قد انشق ثم التأم – وبأنه يجوز ان يكون رآه غيرهم وأخبر به فكذبه من أخبرهم ، وخشي ان يكذبوه فلم يخبر، وليس بضروري ان يراه في تلك اللحظة علماء الفلك على قلتهم في الجهة التي روّي فيها .

«ولكنني لا أذكر ان أحداً أجاب عن كون هذه المعجزة كانت مقترحة ،مع ان النبي ﷺ لم يعط الآيات المقترحة لأنها سبب نزول العذاب بالأمم إذا لم يؤمنوا . وقد روي ان انشقاق القمر كان بطلب كفار قريش ؛ ولا أذكر لهم أيضاً جمعاً بين آية « اقتربت الساعة وانشق القمر » وآية « وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون »،ولا بد من تأويل إحداهما وقد أوّل بعضهم الأولى فقط . وليس المقام مقام التطويل في هذه المباحث » اه.

هذا ما كتبناه في تلك الفتوى وموضوعها ما صح سنده من الروايات في معجزاته ﷺ وهو خلاصة أصحّ الروايات في هذه المسألة . وما اعترض عليها، وما أجيب به عن الاعتراضات وما فيها من إشكال لم يجيبوا عنه . من غير مراجعة ولا نقل وإذ قد اقتضت الحال الآن تحرير المسألة رواية ودراية فإننا نبدأ بالرواية فنقول :

(أ) الروايات في انشقاق القمر وعللها .

زعم بعض العلماء المتقدمين ان الروايات في انشقاق القمر بلغت درجة التواتر، وهو زعم باطل كقول ابن عبد البر الآتي انه نقله جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، وان تلقاه الكثيرون بالقبول حرصاً على إثبات مضمونه كعادتهم في الفضائل والمناقب ودلائل النبوة . فأما الشيخان فالذي صح عندهما مسنداً على شرطهما ، إنما هو عن واحد من الصحابة رضي الله عنهم ، يخبر عن رؤية وهو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وقد أخرجاه عنه ، كأحمد وغيره من طريق

سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر ، ومن طريق الأعمش عن ابراهيم عن أبي معمر . وصح عندهما مرسلاً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه من طريق قتادة فقط ، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنه من طريق عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة . وإنما كان هذان الحديثان مرسلين ، لأن الحادثة وقعت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين ، ولم يكن ولد عبدالله بن عباس ، وأما أنس فكان في المدينة ابن خمس سنين . والخلاف في الاحتجاج بالمرسل معروف ، ومن يحتج بمراسيل الصحابة مطلقاً يبني احتجاجه على انهم يروون عن مثلهم ، ولكن ثبت ان بعضهم كان يروي عن بعض التابعين حتى كعب الأحبار ، وعلى كل حال لا يصح في مراسيلهم ما اشترط في التواتر من الرواية المتصلة إلى من شاهد المروي . ورواية الشيخين المتصلة من طريقين فقط .

ورواه مسلم من طريق شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر ، وهي احدى الطريقين عن ابن مسعود ، وليس فيها انه حدث عن رؤية ، وقد تردد الحافظ في هذه الروايه هل هي إسناد آخر عند مجاهد «او قول من قال ابن عمر وهم من أبي معمر» ؟ وقد روى الحافظ ان ابن عمر هاجر وهو ابن عشر سنين وفي رواية أخرى انه كان سنة الهجرة ابن ست .

ورواه الإمام أحمد وتبعه ابن جبير والبيهقي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، من طريق سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه .

فأما جبير فقد أسلم بعد عام الحديبية وقبل فتح مكة وقيل في الفتح . وقد كان مع المشركين في غزوة بدر وأسره المسلمون فسمع النبي ﷺ يقرأ سورة الطور قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي، وليس في حديثه انه رأى، ولكن ظاهره انه كان مسلماً ، ولو رأى ذلك في حال شركه لعده بعد إسلامه مما أثر في نفسه .

وأما السند اليه فضعيف،فسليان بن كثير ضعّفه ابن معين كما ضعّف ولده محمداً الذي روى هذا الحديث عنه . وقال ابن حبان : كان يخطيء كثيراً . وأما حصين بن عبد الرحمن فقد كان ثقة إلا انه تغير في آخر عمره .

هذا أقوى مـا ورد من الأحاديث في هذه المسألة، وعليها اقتصر الحافظ ابن كثير في تفسيره ، ورواها الترمذي في جامعه وغيره . ولهـا ألفاظ أخرى في التفسير المأثور وكتب الدلائل غربلها الشيخان واختار ما أشرنا اليه وسنذكره بنصه ، وذكر السيوطي في الدر المنثور سائر مخرجيها وألفاظهم وزيادتهم على الصحيحين فيها ، وزاد ما أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبدالله بن أحمد في زوائـد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبـد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله ﷺ ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق اه . وابن جرير لم يذكر ان ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ ، والراوي عن أبي عبدالرحمن عطاء بن السائب، وعنه شعبة وابن علية، واتفقوا على ان عطاء بن السائب قد اختلط في آخر عمره وتغير ، فلا تقبل رواية أحد عنه في آخرته ، ولكن شعبة من قدمـاء الرواة عنه . وقد روى ابن المنذر انه أي حذيفة قرأ « وقد انشق القمر » والرواية تدل على أن هذا خطأ فانه قرأ الآية في خطبته، كما رواها القراء بالتواتر ثم قال: ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق . وهذا من كلامه على انه تفسير . على ان امثال هـذه الروايات الآحادية الغريبة لا يثبت بها القرآن بل لا بد من تواتره .

(ب) اختلاف المتون في هذه الأحاديث

(١) في بعض روايات ابن مسعود في الصحيحين أنه قال انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى . وفي رواية أخرى أنه قال : انشق القمر بمكة وهو الموافق لرواية أنس – وكذا جبير بن مطعم – فانه قال : ونحن بمكة . وفي رواية ثالثة

لم يذكر المكان . قال الداودي : ان بين الحديثين تضاداً . وأجاب الحافظ ابن حجر بأن التضاد يدفع بارادة انهم كانوا عند انشقاقه بمكة أي قبل أن يهاجروا إلى المدينة. ومنى من جملة مكة لأنها تابعة لها . وذكر في رواية ابن مردويه عنه انه قال : ونحن بمكة قبل أن نصير إلى المدينة . ولكن هذا اللفظ لا يقال إلا إذا كان ذلك قبيل الهجرة. وفي الدر المنثور : اخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه أنه قال رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل أن يخرج النبي ﷺ شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء .

ثم قال الحافظ: والجمع بين قول ابن مسعود تارة بمنى وتارة بمكة إما باعتبار التعدد إن ثبت (نقول وهو ينفيه) ، وإما بالحمل على انه كان بمنى . ومن قال كان بمكة لا ينافيه لأن من كان بمنى كان بمكة من غير عكس . ويؤيده ان الرواية التي فيها بمنى قال فيها ونحن بمنى ، والرواية التي فيها بمكة لم يقل فيها « ونحن » وإنما قال : انشق القمر بمكة . يعني ان الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة . وبهذا تندفع دعوى الداودي ان بين الخبرين تضاداً والله أعلم . اه .

وقوله رحمه الله إن ابن مسعود لم يقل في رواية مكة « ونحن بمكة » إنما يصح في رواية الصحيح التي كان يشرحها ، وقد ذهل عما ذكره هو قبل ذلك في شرحه من رواية ابن مردويه عنه وفيها أنه قال : « ونحن بمكة » على أن لفظ « نحن » لا ينقض ما ذكره من التأويل . وإنما يبعده أن المتبادر من قوله : « قبل أن نصير إلى المدينة » انه كان بالقرب من الهجرة والمنقول أنه كان قبلها بخمس سنين ، كما ذكره الحافظ وغيره .

(٢) إن البخاري أسند قول ابن مسعود: انشق القمر بمكة من رواية ابراهيم عن أبي معمر ثم قال : وتابعه محمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن أبي معمر عن عبدالله. وذكر الحافظ في شرحه أن هذه الطريق وصلها عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي من طريقه في دلائل النبوة بلفظ : رأيت القمر منشقاً شقتين شقة على

أبي قبيس وشقة على السويداء – والسويداء بالمهملة والتصغير ناحية خارج مكة عندها جبال . اهـ وفي الصحيحين والترمذي وغيرهم عنه : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه. وفي رواية احمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم عنه : رأيتُ القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر . وفي رواية ابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل من طريق علقمة عنه : كنا مع النبي ﷺ بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين فتوارت فرقة خلف الجبل ، فقال النبي ﷺ : « اشهدوا » !

وفي حديث ابن عمر عند مسلم والترمذي وغيرهما من طريق مجاهد وقد تقدم : انشق فرقتين فرقة من وراء الجبل وفرقة دونه . والحافظ شك في صحة هذه الرواية عنه كما تقدم . وفي حديث جبير بن مطعم : حتى صار فرقتين على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل . وفي حديث أنس في الصحيحين وابن جرير – وتقدم – فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما . وفي رواية عن ابن عباس عند أبي نعيم أن ذلك كان ليلة أربع عشرة قال : فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة .

فهذه بضعة ألفاظ يخالف بعضها بعضاً ، وقد تكلف الحافظ في الفتح الجمع بين قول ابن مسعود: شقة على أبي قبيس وهو بمكة وكونهم كانوا في منى فقال : يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمنى كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس . ويحتمل أن يكون القمر استمر منشقاً حتى رجع ابن مسعود من منى إلى مكة فرآه كذلك وفيه بعد . والذي يقتضيه غالب الروايات أن الانشقاق كان قرب غروبه ، ويؤيد ذلك إسنادهم الرؤية إلى جهة الجبل ، ويحتمل أن يكون الانشقاق وقع في أول طلوعه ، فإن في بعض الروايات أن ذلك كان ليلة البدر – أو التعبير بأبي قبيس من تغيير بعض الرواة، لأن الفرض ثبوت رؤيته منشقاً إحدى الشقتين على جبل والأخرى على جبل

obeikandi.com

آخر .ولا يغاير ذلك قول الراوي الآخر: رأيت الجبل بينهما – أي بين الفرقتين، لأنه إذا ذهبت فرقة عن يمين الجبل وفرقة عن يساره مثلا صدق أنه بينهما، وأي جبل آخر كان من جهة يمينه أو يساره صدق أنها عليه أيضاً اه .

وفي هذا الجمع ضعف من جهات أغربها دعوى احتمال رؤية جبل أبي قبيس من منى في الليل ، وناهيك بغرابة هـذا القول في حال طلوع البدر من الشرق ومكة في جهة الغرب من منى ؟ ثم ماذا يفعل بسائر الروايات .

أبو قبيس هو الجبل المشرف على مكة من شرقيهـا ، وهي من جهة منى ، ويقابله قعيقعان من غربيها. وحراء هو الجبل الذي يرى في داخل مكة ويسمى الآن جبل النور ، وفيه الغار الذي كان يتعبّد به النبي ﷺ ، وهو في الجهة الشمالية من مكة على يسار الذاهب منها إلى منى فعرفات ، يبعد عن الطريق زهاء ميل ويبلغ ارتفاعه زهاء مائتي متر ، ولا يرى من منى. ورواية أبي نعيم عن ابن مسعود « رأيت جبل حراء من بين فلقتي القمر » . وأما السويداء فلا يعلم مكانها من تفسير الحافظ لها . وفي معجم البلدان وكتب اللغة أنها موضع تابع للمدينة ، وفي المعجم أنهـا على بعد ليلتين منها ، والحافظ ثقة في النقل . ومنى أعلى من مكة والمسافة بينهما ثلاثة أميال .

وجملة القول أن الروايات الواردة في كون القمر انشق وهم في مكة لا تتفق مع الروايات المصرحة بأنهم كانوا في منى، لأن كل ما ذكر في بعضها من التفصيل والبيان للجبلين اللذين أيهما في البعض الآخر يفيد أنه لا يمكن أن يراهما من كان في منى . فقول الداودي بتناقض الروايتين ظاهر، وما اعتمده الحافظ من الجمع بينهما مردود ، ولذلك لجأ بعضهم الى تعدد الانشقاق ، وقد أبى الحافظ قبوله على إغماضه وتساهله في الجامع بين الروايات المتعارضة ، لأن مدار اثباته على النقل، ولم ينقل إلا في رواية ضعيفة فيها لفظ مرتين، وقالوا ان صوابه شقتين او فرقتين وفاقاً لسائر الروايات .

والقاعدة المشهورة عند العلماء في الأدلة المتعارضة التي يتعذر الجمع بينهما تساقطها ، ومن الدائر على ألسنتهم في المتعارضين كذلك « تعادلا فتساقطا » ، والقطيعان لا يتعارضان . والافاضة في هـذه المباحث ليست من موضوع هذه الفتوى .

(ج) استشكال الرواية بعدم تواترها

ذكر علماء الاصول أن الخبر اللغوي ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وأن أقسامه العقلية ثلاثة : ما يُقطع بصدقه بالضرورة او بالنظر الذي يؤدي إليها – وما يقطع بكذبه كذلك ، وما لا يقطع بصدقه ولا كذبه . . وذكروا أن مما يقطع بكذبه الخبر الذي لو كان صحيحاً لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر إما لكونه من اصول الشريعة ، وإما لكونه امراً غريباً كسقوط الخطيب عن المنبر وقت الخطبة .

ومن المعلوم بالبداهة أن انشقاق القمر امر غريب بل هو في منتهى الغرابة التي لا يعد سقوط الخطيب في جانبها غريباً ، لأن الإغماء كثير الوقوع في كل زمن ، ومتى وقع سقط صاحبه خطيباً كان او غير خطيب ، وانشقاق القمر غير معهود في زمن من الأزمان ، فهو محال عادة . وبحسب قواعد العلم ما دام نظام الكون ثابتاً وإن كان ممكناً في نفسه لا يعجز الخالق تعالى إن أراده . فلو وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الامم ، ولو كان وقوعه آية ومعجزة لإثبات نبوة النبي ﷺ لكان جميع من شاهدها من اصحاب النبي ﷺ نقلها وأكثر الاستدلال والاحتجاج بها، حتى كان يكون من نقلتها في رواية الصحيحين قدماء الصحابة الذين كانوا لا يكادون يفارقون النبي ﷺ ، ولاسيا في مثل هذه المواقف، كالخلفاء وسائر العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم رضي الله عنهم . وقد علمت أنه لم يقل إن ذلك كان آية بطلب كفار قريش، وإنما روى هذا أنس بن مالك ، وروايته

مرسلة ليست عن مشاهدة كما تقدم ، وعلمت ما في الروايات في غير الصحيحين من العلل .

وقد ذكر الحافظ هذا الاشكال في الفتح وأجاب عنه بما نصه :

« وأما قول بعضهم لو وقع لجاء متواتراً واشترك أهل الأرض في معرفته ، ولما اختص بها أهل مكة ، فجوابه ان ذلك وقع ليلاً ، وأكثر الناس نيـــام ، والأبواب مغلقة ، وقلّ من يرصد السماء إلا النادر ، وقد يقع بالمشاهدة في العادة ان ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك من الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد ، فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها ، ويحتمل ان يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم » اه.

تضمن جواب الحافظ عن هذا الإشكال جواباً عن إشكال آخر في معناه ذكره بعده مع الجواب عنه نقلاً عن الخطابي أحد قدماء شرّاح صحيح البخاري وسيأتي ، ونقول في جوابه عن مسألة نقل التواتر : أولاً — ان وقوعه في الليل وأكثر الناس نيام لا ينافي نقله بالتواتر ، إذ لا بد ان يكون رآه عدد يحصل بهم نقل التواتر ولو من أهل مكة أنفسهم ، ولا يمكن ان يختص برؤيته بعض الأفراد كما بيناه في توجيه الإشكال . وقد عُلم من بعض الروايات انه وقع في منتصف الشهر والقمر بدر ، ولا بد ان يكون ذلك في أول الليل كما ذكره الحافظ احتمالاً ، وبه تظهر رواية كونه كان آية على صحة نبوته ﷺ . والظـــاهر من رواية التصريح بأنهم كانوا في منى ان ذلك كان في الموسم ، إذ لا يجتمع الناس في منى إلا في أيام التشريق وهي الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، وصرح بعضهم بأنه انشق في الليلة الرابعة عشرة ، ولا يعقل ان يضرب للذين طلبوا منه ﷺ الآية من كفار قريش آخر الليل موعداً ، على أنه لا فرق بين أول الليل وآخره من جهة اجتماع الناس من المسلمين والمشركين لأنه لإقامة الحجة وهي لا تكون بالسر والإخفاء .

(ثانياً) إن المعلوم من عادة الناس في جميع البلاد ان يكونوا مستيقظين في أول الليل ولا سيما في الليالي البيض التي يكون القمر فيها بدراً يطلع من أول الليل ، وأنهم يكثرون النظر اليه لجماله ، وخاصة في الأماكن الخلوية كمنى . وقد علمت انهم قالوا ان انشقاقه كان قبل الهجرة بخمس سنين . ومن راجع حساب السنين في ذلك لذلك العهد علم ان موسم الحج قبل الهجرة بخمس سنين كان في فصل الصيف .

(رابعاً) إن التنظير بين انشقاق القمر والخسوف في غير محله، لأن الخسوف من الأمور الكثيرة الوقوع التي لا يعنى جماهير الناس بذكرها ، وإنما يهتم بهما علماء الفلك دون غيرهم ، وهي ترى في بعض البلاد دون بعض ، وأصحاب التقاويم الفلكية السنوية المألوفة في هذه البلاد يذكرون في كل سنة ما لعله يقع في أثنائها من خسوف القمر و كسوف الشمس ويحددون وقته بالدقائق والثواني ، ويذكرون البلاد التي يُرى فيها والتي لا يرى فيها، لأن سببها من الأمور المعلومة بالقطع ، ومنه يعلم انهما ليسا من الأمور التي تعرض لجرم القمر والشمس ، وإنما سبب خسوف القمر ان الأرض تقع بينه وبين الشمس فتحجب نورها عنه بقدر ما يقع من ظلها عليه ، وسبب كسوف الشمس وقوع جرم القمر بينهما وبين الأرض . وأما انشقاقه فهو صدع لجرمه يفصل بين أجزائه ، فإذا كان هذا الفصل واسعاً كالذي تصفه لنا الروايات السابقة فلا بد أن يراه كل من نظر إليه في كل قطر .

(خامساً) إن قوله : ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض اهل الآفاق دون بعض ، كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم — لا يفيد في دفع الاشكال ، فإن كل من يراه في المنزلة التي انشق فيها لا بد ان يراه منشقاً بخلاف الخسوف كما علم مما قلناه آنفاً .

(د) إشكال خفاء الحادثة على جميع الأقطار .

هذا الإشكال في معنى الذي سبقه او مؤكد له ، وقد أفرده علماؤنا بالذكر

وأجابوا عنه. وقد كفانا الحافظ رحمه الله مؤنة مراجعةما كتبوه فجاء بأحسنه، وهاك ما أورده في هذه المسألة عقب ما نقلناه عنه فيما قبلها :

« وقـــال الخطابي : انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة ، فلذلك صار البرهان به أظهر ، وقد أنكر ذلك بعضهم فقال : لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء ، والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد ، فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم ، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله ، مع جلالة شأنه ووضوح أمره . والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها ، لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلاً ، لأن القمر لا سلطان له بالنهار ، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياماً ومستكنـّين بالأبنية ، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره ، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مراكز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه ، فقد يجوز انه وقع ولم يشعر به أكثر الناس وإنمـا رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه ، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر .

« ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منهـــا مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن بمـــا حاصله : ان معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية ، فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الافهـــام . ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم .

« وذكر أبو نعيم في الدلائل نحو ما ذكره الخطابي وزاد : ولاسيما إذا وقعت

الآية في بلدة كان عامة أهلها يومئذ الكفار الذين يعتقدون أنها سحر، ويجتهدون في إطفاء نور الله . قلت : وهو جيد بالنسبة إلى من سأل عن الحكمة في قلة من نقل ذلك من الصحابة، وأما من سأل عن السبب في كون أهل التنجيم لم يذكروه فجوابه أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفاه، وهذا كاف . فان الحجة فيمن أثبت لا فيمن يوجد عنه صريح النفي ، حتى إن من وجد عنه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الإثبات .

« وقال ابن عبد البر : قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا . ويؤيد ذلك بالآية الكريمة ، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر . ثم أجاب بنحو جواب الخطابي وقال: وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين، وأيضاً فان زمن الانشقاق لم يَطُلْ ، ولم تتوفّر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه ، ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفّار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك ، وذلك لأن المسافرين في الليل غالباً ما يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك . وقال القرطبي : الموانع من مشاهدة ذلك إذا لم يحصل القصد إليه غير منحصرة. ويحتمل أن يكون الله صرف جميع أهل الأرض غير أهل مكة وما حولها عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ليختص بمشاهدته أهل مكة كما اختصوا بمشاهدة أكثر الآيات ونقلوها إلى غيرهم ، اه . وفي كلامه نظر ، لأن أحداً لم ينقل أن أحداً من أهل الآفاق غير أهل مكة ذكروا أنهم رصدوا القمر في تلك الليلة المعينة فلم يشاهدوا انشقاقه، فلو نقل ذلك لكان الجواب الذي أبداه القرطبي جيداً، ولكن لم ينقل عن أحد من أهل الأرض شيء من ذلك . فالاقتصار حينئذ على الجواب الذي ذكره الخطابي ومن تبعه أوضح والله أعلم اه .

أقول : قد علم مما تقدم آنفاً ضعف الجواب عن هذا الاشكال كسابقه ، ونزيد عليه ما أرجأناه عمداً وهو قول الخطابي ومَنْ تبعه « لعل انشقاق القمر

إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر ، فهذا الاحتمال هو الذي يمكن أن يعقل به احتمال عدم رؤية أهل الأقطار له حتى أهل مكة ، وكذا من كان في منى ، ولذلك ذكرناه في تلخيص المسألة في المجلد السادس ، وإذا أضيف إليه احتمال وقوع الرؤية في آخر الليل يزداد قوة – وقد يكون كل من الاحتمالين معقولاً إذا اعتمدنا في المسألة ظاهر حديث ابن مسعود المسند المتصل في الصحيحين وما وافقه من أن انشقاقه لم يكن إجابة لاقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يريهم آية تدل على صدق دعواه ، ولا يعقل على رواية أنس المرسلة في الصحيحين وما في معناها في غيرهما ، كما تقدم من أن ذلك كان آية مقترحة ، لأن الله تعالى إذا أراد أن يؤيد رسوله ﷺ بآية كونية عظيمة كهذه تكون حجة له على الناس فإنه لا يجعلها كطرفة عين يراها أفراد قليلون في آخر الليل ، وقد ران الكرى على أجفانهم ، بحيث يعذرون في اتهام أبصارهم بهذه الرؤية ، كما ورد في بعض الروايات انهم قالوا ذلك . وجاء في بعض التفاسير انه وقع مثل ذلك ببعض المتأخرين فزعم انه رأى القمر قد انشق ، ومن المعلوم بالضرورة ان هذا تخيل ، بل يجعلها آية مبصرة كناقة صالح لا يمكن الشك ولا المراء الظاهر فيها .

وأما ما ورد في غير الصحيحين من انتظار أهل مكة للسفار واخبارهم برؤيته منشقاً فهو لا يصح ، ولو صح لكان مؤيداً لإشكال توفر الدواعي على نقله متواتراً .

أما الحديث فقد رواه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وكذا أبو نعيم والبيهقي كلاهما في **دلائل النبوة**، كلهم من طريق مسروق عن ابن مسعود. وفي سنده عند ابن جرير المغيرة بن مقسم (بكسر الميم) الكوفي الفقيه ، وهو مدلس، وقد عنعن فلا يحتج بروايته . وأما تأييده لما ذكر من الإشكال فظاهر، لأن رؤية أولئك السُفّار له دليل على رؤية غيرهم من مسافر ومقيم ، وهم كثيرون، وحينئذ لا بد أن يرويه الكثيرون. ومن غرائب الاحتمالات التي تخيلها

بعض المجيبين عن هذا الاشكال قول القرطبي الذي نقلناه عن الحافظ آنفاً ، فحاصله مع ما قبله ان هذه الآية العظيمة جعلها الله تعالى في لحظة من آخر الليل وصرف عن رؤيتها أبصار جميع الخلق غير الذين كانوا مع النبي ﷺ ليلتئذ وكذا بعض سفار المكيين على رواية شاذة !!!

وأما قولهم انه لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوا القمر في تلك الليلة فلم يروه انشق ، ففيه أن رؤية انشقاقه لا تتوقف على رصده ، لأن من شأنه أن يراه كل ناظر إليه ، وأن الذين ينظرون إليه في ليالي تمّه كثيرون .

وأما قولهم : « إن الحجة فيمن أثبت لا فيمن يوجد عنه صريح النفي حتى ان من وجد منه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الاثبات » ففيه انه ليس في موضع النزاع ، لأن الواقع انه وجد مثبت فقط ، ولكنه يدعي شيئاً لو صح لرآه من لا يحصى من أهل الأقطار المختلفة ، ولنقل عنهم بالتواتر ، وإذ لم يحصل هذا فيكون خبره غير مقبول كما تقدم تقريره من كلام علماء الأصول والمنطق في الخبر الذي يقطع بعدم صحته (دع كونه معارضاً بآيات القرآن المحكمة كما يأتي قريباً) .

وقد بالغ القاضي عياض في الاعتماد على هذا الجواب او الدفع فجعل نقل النفي للشيء بالخبر المتواتر المفيد للعلم القطعي مرجوحاً يردّ بما يعارضه من إثباته بخبر الواحد الذي لا يفيد الظن عندهم إلا بشروط ، منها : أن لا يكون مخالفاً لسنة الله في الوجود ونظام العالم ، وأن لا يكون مما تتوفر الدواعي على نقله بالتواتر ، وأن لا يكون معارضاً بنص قطعي كآيات القرآن الصريحة في عدم إعطاء الله رسوله ﷺ آية باقتراح الكفار (وسيأتي تقرير هذا في الاشكال الأصولي « و ») .

وهذا نص عبارة القاضي : « ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كان علينا به حجة » ، يعني أننا نصدقهم بأنهم رصدوه طول

الليل ولم يروه انشق ، ولا يكون حجة علينا مع قطعنا بصدقهم ، وعلل هذا بقوله: «إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض ، او يحول بين قوم وبينه سحاب وجبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض » الخ ما سبقه إليه الخطابي وغيره وتقدم .

وفيه ان التعليل الذي ذكره يصح في بعض الأقطار دون جميعها ، ولكن لا يجوز عقلاً أن ينشق ولا يرى في شيء منها ، وتقدم الجواب عن اختلاف المطالع والخسوف والكسوف .

على ان الحافظ المزي نقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية ان بعض المسافرين ذكر أنه رأى في بلاد الهند بناءً قديماً مكتوب عليه أنه بُني ليلة انشق القمر . وأذكر انني رأيت في بعض الكتب او الصحف ان هذا رؤي في بلاد الصين . ولكن مثل هذا الخبر الغريب عن مسافر مجهول لا يعدّه أحد من أهل العلم حجة في مسألة علمية ، ولو لم تكن كمسئلتنا ، لعدم الثقة بعدالته ، ولأنه يروي ما لو صح لوقف عليه المسلمون الفاتحون للهند ، ولجعلوا لذلك البناء شأناً يشتهر به ويزار ، ولدون خبره في كتب التاريخ ، ولم يوجد شيء من ذلك . على أنه لو وجد بهذا الإبهام والإجمال لما كان حجة في موضوعنا لجواز ان يكون سببه اسطورة او اشاعة حدثت عند الذين بنوه ، وربما كانوا من الوثنيين . وقد نقل الحافظ في سياق هذا البحث ان العلامة الحليمي المشهور ، قال كما نقل عنه البيهقي في **البعث والنشور** ما نصه :

« ان من الناس من قال ان المراد بقوله تعالى: « وانشق القمر » اي سينشق ، قال الحليمي: فان كان كذلك فقد وقع في عصرنا فشاهدت الهلال ببخارى في الليلة الثالثة منشقاً نصفين عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة اربع او خمس ثم اتصلا فصار في شكل أترجة الى أن غاب ، وأخبرني من اثق به انه شاهد

ذلك في ليلة أخرى . اهـ . وقد صرح الحافظ ابن حجر بتعجبه من إقرار البيهقي لهذا مع حديث ابن مسعود . ونحن نصدق ما ذكره الحليمي عن نفسه وعمن يثق به ونجزم أنهما تخيلا فخالا ، أو عرض لبصرهما ما صوّر لهما ذلك ، ومن العلل العارضة للبصر أو الدائمة ما يصور لها الواحد اثنين ، وهذا معروف مشهور .

(٥) الاشكال الفلكي .

استشكل بعض الناس خبر انشقاق القمر بما هو مقرر في أصول علم الفلك (القديم) كذا قال الحافظ « وأنهم احتجوا بأن الآيات العلوية لا يتهيأ فيها الخرق والالتئام » ، وعزاه إلى الفلاسفة ، ونقل عن الزّجاج عزوه إلى « المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة » ، وأجاب عنه بأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء . أقول : وهذا حق لا ينكره مؤمن بالله ، ومسألة عدم قبول الافلاك للخرق والالتئام ، من أوهام فلاسفة اليونان ، وقد كشفها وأبطلها علم الهيئة الحديثة . ولكن لا يشك عاقل من المؤمنين وغيرهم ان خلقه تعالى للسموات وأجرامها في غاية الابداع والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل ، وان سننه تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتحول ، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها وثباتها ، كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها ، ومن دونها آيات أرضية لا يتضمن وقوعها ما يتضمنه انشقاق القمر ورجوع الشمس بعد غروبها من مخالفة نظام الكون العام ، ومعارضة قوله تعالى « الشمس والقمر بحسبان »[١] ، وقول رسوله ﷺ : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته » متفق عليه ، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ ، فمثل هذا يقبل في خبره ما صحّ وإن لم يتواتر ويصير قطعياً . ونحن إنما نذكر مثل هذه الدقائق لغرض شرعي صحيح سنذكره بعد .

---

(١) سورة الرحمن رقم ٥٥ الآية ٥ .

(و) الاشكال الأصولي الأعظم .

قد ثبت بآيات القرآن المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة ، ان آية الله تعالى وحجته على صحة نبوة خاتم رسله محمد ﷺ ، التي تحدى بها الكفار ولم يحتج عليهم بغيرها هي كتاب الله المعجز للبشر ولغيرهم من الخلق ، وثبت بالحديث الصريح أيضاً فقد قال ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان والنسائي . فقوله ﷺ « وإنما كان » من شرح تفيد الحصر ، وقد تأوّلوه بأنه لما كان القرآن أعظم معجزاته وأدومها كان غيرهم منها كأنه غير موجود، ولا حاجة إلى هذا التأويل إذا اشترط في المعجزة التحدي فإنه ﷺ لم يتحدّ العرب ولا عيّرهم إلا بالقرآن . وقد بين العلماء حكمة ذلك بما هو معلوم مشهور بناء على أنه هو أصل العقيدة القطعي الذي لا نزاع فيه ، وثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة ان الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية التي أوتي مثلها الرسل على الابهام ، وانهم اقترحوا عليه آيات معينة أيضاً فلم يجابوا إلى طلبهم ، وفي بعض هذه الآيات ما يدل على انه ﷺ كان يحب هو وأصحابه ان يؤيده الله بآية مما اقترحوه لعلهم يؤمنون ، وأن الله تعالى لم يؤته ذلك بل بيّن له في بعض تلك الأحوال ان طلبهم الآيات إنما يقصدون به التعجيز ، وانهم لو أعطوها لا يؤمنون ، وان سنته قد مضت بأن ينزل عذاب الاستئصال بكل قوم اقترحوا آية على رسولهم ولم يؤمنوا بإجابتهم إلى ذلك ، وأمره في أحوال أخرى بأن يخبرهم بأن الآيات عند الله وبيده وحده ، وأنه هو بشر لا يستطيع شيئاً مما لا يستطيعه البشر ، إلا ان الله تعالى أوحى إليه ما أمره ان يبلغه الناس من البينات الهدى والإيمان، وصرح في بعضها بأن آيته الكتاب العزيز المشتمل على آيات كثيرة في آية الله الكبرى ، وصرح في بعض آخر ببعض تلك الآيات فيه .

ففي سورة يونس « ١٠ : ٢٠ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما

الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين » ، وفي سورة الرعد «١٢ : ٨ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » ، وفيها « ٢٨ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قـُـلْ إن الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب » وفي سورة طه « ٢٠ : ١٣٣ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ؟ او لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » ؟ أي أخبار كتب الأنبياء في القرآن وهي إحدى معجزاته ، وفي سورة العنكبوت « ٢٩ : ٥٠ وقـالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه : قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين (٥١) او لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

وفي سورة الانعام « ٦ : ٨ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ؟ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون» ، أي لقضي الأمر بهلاكهم واستئصالهم ثم لا يُنظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون بعد نزوله .

وقال في سورة الإسراء «١٧: ٦٠ وما منعَنا ان نرسل بالآيات إلا ان كذب بهـــا الأولـّن ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » .

وقال في سورة الإنعام لرسوله ﷺ مسلياً إياه عن إعراضهم ومؤيساً إياه من إعطاء الآية الكونية المقترحة « ٦ : ٣٩ وان كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت ان تبتغي نفقاً في الأرض او سلماً في السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٤٠) إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون (٤١) وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

ثم قال فيها مؤيساً لأصحابه ﷺ من إيمانهم إذا أوتوا آية « ١١٠ وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها ، قل إنما الآيات عند الله ، ومـــا

يشعركم انها إذا جاءت لا يؤمنون (١١١) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١١٢) ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون» . وليراجع من شاء تفسير كل ما ذكرنا من هذه الآيات التي في سورة الإنعام في الجزء السابع، وأول الثامن من تفسيرنا هذا وفي غيره .

بعد التذكير بهذه الآيات المحكمة القطعية كيف يمكننا أخذ رواية أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيحين بالقبول، فنصدق ان المشركين طلبوا من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، ولم يدع غيره من رواة الحديث في الصحيحين هذه الدعوى، مع العلم بأن روايته له مرسلة، لأنه انصاري كان عند هجرة النبي ﷺ ابن عشر سنين، وعند انشقاق القمر ابن خمس سنين في المدينة، ولا يعلم أحد إلا الله ممن سمع هذا الخبر، واحتمال سماعه له من ابن مسعود بعيد لأنه لم يأت في شيء من الروايات الصحيحة عن ابن مسعود ان المشركين اقترحوا على النبي ﷺ آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. وفي رواية عنه مرتين وهي غلط من الرواة كما بينه ابن القيم وابن حجر ويراد بها الشقين، ولم يصح ذلك عن أحد ممن رووا عنه هذا الحديث. وإنما روى نحوه أبو نعيم في الحلية ببعض أسانيده الواهية عن ابن عباس رضي الله عنه، وروى عنه ما يعارضه وهو ان الذين طلبوا من النبي ﷺ ان يريهم آية ليؤمنوا فأراهم انشقاق القمر هم بعض اليهود، وهي رواية شاذة على شدة ضعفها لم يقبلها أحد من العلماء الذين يقبلون الأحاديث الضعيفة في الفضائل والدلائل لمعارضتها للأولى، ولأن مكة لم يكن فيها اليهود، وسورة القمر مكية بالإجماع .

قال الحافظ في شرح حديثه في (باب انشقاق القمر) من البخاري : ولم أرَ في شيء من طرقه أنّ ذلك كان عقب سؤال المشركين إلا في حديث أنس، فلعله سمعه من النبي ﷺ، ثم وجدت في بعض طرق حديث ابن عباس صورة

السؤال وهو وإن كان لم يدرك القصة ، لكن في بعض طرقه ما يشعر بأنه حمل الحديث عن ابن مسعود كما سأذكره، فأخرج أبو نعيم في **الدلائل** من وجه ضعيف عن ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ، ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ : ان كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق اهـ. والحافظ حجة في النقل ، ضعيف في إيراد الاحتمالات وتوجيهها في الغالب، ولا سيما الاحتمالات المؤيدة لما يراه صحيحاً اوحسناً فيىنفسه كالفضائل والمناقب ، وما يعد من دلائل النبوة منها أولى .

وأول مـــا يخطر في بال مستقل الفكر ان الذين رَوَوْا الحديث عن ابن مسعود نفسه عند الشيخين وغيرهما ، لم ينقل أحد عنه ان انشقاق القمر كان إجابة لطلب الكفار آية من النبي ﷺ ، وذلك معارض لنصوص القرآن فكيف نلصق به احتمال تحديث ابن عباس بذلك في رواية لم تصح عن ابن عباس ، مع ان رواية ابن عباس في الصحيحين مرسلة يحتمل ان يكون سمعهـــا من بعض التابعين حتى كعب الأحبار الذي ثبت انـــه روى عنه بعض إسرائيلياته في التفسير وغيره .

هذا مجمل ما يقال في رواية كون انشقاق القمر كان آية مقترحة من الكفار خلافاً لما يقتضيه ما ذكرنا من آيات القرآن وما لم نذكر منها ، ولم نرَ أحداً من العلماء عني ببيان الإشكال والجواب عنه ، إلا ان الخطابي قرر في مسألة انشقاق القمر حكمة عدم بلوغ شيء من المعجزات المحمدية مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن – بما حاصله كما تقدم عن الحافظ ابن حجر « ان معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومـه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية » الخ مـا تقدم، وهو تلخيص الحافظ لكلامه او لما فهم او أراد منه، على أنه لم يرض منه

obeikandl.com

إلا تعليه مناسبة إيتاء كل نبي ما يناسب حال أمته من الآيات كما تقدم. ولكن الشيخ علياً القاري نقل عبارته نفسها في شرحه للشفا وهي :

« قال الخطابي : الحكمة في وقوعها ليلا ان من طلبها من الرسول ﷺ بعض من قريش فوقع لهم ذلك ليلا ، ولو أراد الله تعالى ان تكون هذه المعجزة نهاراً لكانت داخلة تحت الحس قائمة للعيان بحيث يشترك فيها الخاصة والعامة لفعل ذلك ، ولكن الله تعالى بلطفه أجرى سنته بالهلاك في كل أمة أتاها نبيّها بآية عامة يدركها الحس فلم يؤمنوا، وخصّ هذه الأمة بالرحمة فجعل آية نبيها عقلية وذلك لما أوتوه من فضل الفهم بالنسبة إلى سائر الأمم والله سبحانه وتعالى أعلم » اهـ .

وهذه العبارة تفيد ما لم يفده تلخيص الحافظ لها ، وإنما يلخص كل إنسان من كلام غيره ما يفهمه مما يتعلق بغرضه، وما كل إنسان يفهم كل مراد غيره من كلامه ، وما كل ملخص يؤدي كل ما فهمه كما فهمه، وكل من العبارتين قاصر عن تحقيق الحق في الموضوع ، وقد بيّناه في مواضع من تفسيرنا ، ومنه ان الله تعالى جعل آيته على صدق رسالة خاتم النبيين عقلية علمية دائمة لا تنقطع لتكون حجة قائمة على العقلاء ، ببقاء أمة الدعوة وأمة الإجابة أي إلى يوم القيامة ، فإن الآيات الكونية لا بقاء لها ، ويحصل المراء في نقلها وفي دلالتها .

ومنه انه مضت سنة الله تعالى بأن الأمة التي تقترح على رسولها آية ثم تكفر به بعد تأييد الله إياه بها ، فإن الله تعالى ينزل بها عذاب الاستئصال العام عاجلا لا عذاب المكذبين وحدهم ، ولما كان خاتم النبيين قد أرسل رحمة للعالمين كان تعذيب قومه بعذاب الاستئصال منافياً لهذه الرحمة ومستأصلا لجميع البشر او لقومه في الجنسية النسبية وهم العرب عامة ، لا من رآها منهم وكذبها خاصة ، ولو استأصل العرب ، لما آمن بالقرآن شعوب العجم « ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين »[1] ، وإنما أعد الله لفهمه وفقهه

(١) سورة الشعراء رقم ٢٦ الآية ١٩٨ .

العرب ، وقدر ان يكونوا هم الدعاة والهداة للعجم، بما يرون من تأثير هدايته فيهم بالسيادة والعدل في الأمم ، كما بيّناه في فاتحة التفسير . فعبـارة الخطابي قاصرة . ومن الغريب انه يزعم ان وقوع انشقاق القمر ليلاً يخرجه عن كونه آية حسية ، ليدفع به استشكاله بعدم نزول العذاب بهم لعدم إيمانهم بها ، وهو ما اشترطه هو دون غيره لعذاب الأمة اذا لم تؤمن عقب رؤية الآية ، وهو زعم مخالف للحس .

وجملة القول أنه لو صح ان قريشاً سألوا النبي ﷺ آية تدل على صدق نبوته وأن الله تعالى أجابهم إلى طلبهم ، فجعل انشقاق القمر آية كما هو نص حديث أنس في الصحيحين وغيره في غيرهما لعذب الله أمته او قومـه باستئصالهم على حسب القاعدة الصحيحة الثابتة بالنص القطعي ، او لعذب من رأوهـا وكذبوا بها على رأي الخطابي ومن وافقه، ولكن لم ينقل ان الله تعالى عذب أحداً منهم عقب ذلك التكذيب ، بل نقل خلافه وان منهم من مات بعد ذلك ، ومنهم من قتل ببدر بعد بضع سنين ، ومنهم من آمن بعد إصراره على التكذيب بعد رؤيتها بضع عشرة سنة كالنضر بن الحارث من مسلمة الفتح الذين شهدوا حنيناً وأعطاه النبي ﷺ مائة بعير تأليفاً له . وقيل انه أخ له اسمه نضـير بالتصغير وراجع الاسمين في الإصابة .

ومن غريب الذهول ان الحافظ ابن كثير لم يعرض لهـذه المسألة في تفسير أول سورة القمر بل أورد حديث أنس وسكت عليه ، ولكنه أشار اليهـا في تفسير بعض الآيات الصريحة في عدم إجابة الكفار إلى ما كانوا يقترحونه على النبي ﷺ من المجيء بـآية أي آية او بآية معينة ، قـال في تفسير آية يونس «١٠ : ٢٠ وقالوا لولا يأتينا آية من ربه» بعد ان أورد بعض الآيات في معناها ما نصه :

« يقول تعالى : إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا

عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا ، وبين إنظارهم ، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا «فقل إنما الغيب لله» أي ان الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور «فانتظروا اني معكم من المنتظرين » أي ان كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم . هذا مع انهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومما لم يسألوا اه المراد منه . وقد أورد بعده بعض الآيات الناطقة بأنهم سألوا ذلك عناداً وتعنتاً وانهم لا يؤمنون إذا أجيبوا إلى ما طلبوا وإلى ما هو أعظم منه . وظاهر عبارته هنا في مسألة انشقاق القمر انه لم يكن عن طلب واقتراح منهم، وإلا كان مناقضاً لما قبله ولما بعده من الآيات هنا، ولما قاله كغيره فيتفسيرها وفي مواضع أخرى من التفسير .

وما ذكره ابن كثير من تخيير الله تعالى لنبيه ﷺ هو المروي فيما ذكر من اقتراحاتهم في سورة الاسراء (١٧ : ٩٠ – ٩٣) . وقال في تفسير « ١٧ : ٥٩ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أي نبعث بالآيات ونأتي بها على ما سأل قومك ، منك فإنه سهل علينا يسير لدينا ، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها ، وقد جرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم انهم لا يؤخرون ان كذبوا بها بعد نزولها الخ .

وقال البغوي في هذه الآية : « وما منعنا من أن نرسل بالآيات » التي سألها كفار قريش « إلا أن كذب بها الأولون » فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم ، لأن من شأننا في الأمم إذا سألوا بالآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها ان نهلكهم ولا نمهلهم ، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب ، فقال تعالى : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» اه. وتكررت أقوال

المفسرين بهذا المعنى في تفسير الآيات الكثيرة التي ذكرنا بعضها في أول بيان هذا الإشكال .

فهذه أدلة قطعية إجماعية على بطلان متن حديث أنس رضي الله عنه ، المرسل الصحيح السند الذي لم يجد الحافظ ما يقويه به على سعة اطلاعه وحفظه إلا حديث ابن عباس عند أبي نعيم الذي اعترف بضعفه ، وأقول ان في سنده عنده بكر بن سهل وكان يروي الموضوعات، وهو من طريق الضحاك عن ابن عباس، واتفقوا على أنه لم يره فهو منقطع، وضعفه بعضهم، وطريق ابن جريج عن عطاء عنه، وابن جريج مشهور بالتدليس فلا تقبل عنعنته بالاتفاق، دع ما تقدم من ارساله وبطلان متنه .

وإذا بطل كون الانشقاق كان آية طلبها كفار قريش فأعطوها زال السبب الذي جعل أكثر العلماء الذين تكلموا في المسألة شديد الحرص على تصحيح الحديث، حتى تجرأ بعضهم على ادعاء تواتره والاجماع عليه ، ورد الأكثرون هاتين الدعويين ، ولله الحمد أن أكرمهم بعدم قبول مثلها ، وقد كان من حرص بعضهم على تصحيحه — مع الغفلة عن معارضة القرآن لكونه آية مقترحة — أن طعنوا في دين من أنكر صحته وأبى تفسير الآية الكريمة به وعدّوهم من المبتدعين ، وان كان لهم سلف من أكبر علماء التابعين ، كعادتهم في نبز كل من خالف المشهور أو الجمهور في كل زمن بلقب الابتداع ، ولو تذكروا آيات القرآن الكثيرة المعارضة له لما حرصوا كل هذا الحرص على تصحيح ما يخالفها ، بل لما استحلوه ، وإلا كانوا أحق بلقب الابتداع ممن رموهم به أو بما هو شر منه ، وان كان إكباراً لآية انشقاق القمر التي تصغر وتتضاءل دون كل آية من آياته ، فإن نوره أقوى وأوضح من نور الشمس التي يستمد القمر نوره منها ، على انهم لم يجدوا بداً من تصغير هذا الانشقاق في سبيل دفع الاعتراضات عليه ، حتى قال بعضهم انه وقع في آخر الليل في لحظة من الزمان ، ولذلك لم يره إلا من كان مع النبي ﷺ في تلك اللحظة ، وأي برهان على النبوة في مثل هذه اللحظة من آخر

الليل او أوله او وسطه ؟ وكل إنسان يتهم نظره في مثلها وإن لم يكن ثمة تهمة في انها من تخييل السحر ، وقد وقع مثلها للحليمي وغيره كالثقة الذي حدثه بمثل ما رأى ؟

وأما معارضة جملة هذه الروايات بما استشكله العلماء ونقلناه عنهم مع أجوبتهم والبحث فيها ، فالذي نقرره فيها ان من قبل تلك الروايات في أن القمر قد انشق، ومن لم يقبلها لعدم اقتناعه بتلك الأجوبة عن تلك الاشكالات، سواء في كون كل منهما لم يرد به شيئاً من كتاب الله ولا من سنة رسوله ولا مما صح من حديثه .

فإن قيل إننا رأيناك ذكرت كل الروايات عن أولئك الصحابة الكرام في حديث انشقاق القمر إلا حديث علي رضي الله عنه ، فلم تذكر لنا لفظه ولا سنده لنعلم درجته ودلالته فما سبب ذلك؟ قلت أنهم ذكروا اسمه كرم الله وجهه في رواته، ولكننا لم نر أحداً منهم ولا من غيرهم ذكر لفظه ولا ذكر من خرّجه لنراجعه في كتابه إن كان من الكتب المشهورة المتداولة. ولكننا رأينا في شرح الشفاء لملّا علي القاري عند ذكر المتن لعلي في رواته ما نصه : قال الدلجي : لا يعرف مخرجه اه .

(ز) الخلاصة الأصولية لأحاديث انشقاق القمر .

خلاصة القول في أحاديث انشقاق القمر : ١ – انها آحادية لا متواترة ، ٢ – وانها متعارضة مختلفة ، لا متفقة مؤتلفة ، ٣ – وانه ليس فيها حديث مرفوع الى النبي ﷺ كالأحاديث الناطقة بخصائصه ، ٤ – وانه ليس في الصحيحين منها إلا حديث واحد مسند الى من صرح بأنه رأى ذلك، وفيه من الاختلاف ما أشرنا إليه في محله، ولكن ليس فيه انانشقاقه كان بطلب من كفار مكة، ٥ – وان حديث أنس الذي صرح فيه بذلك مرسل، والأصل في المرسل انه من المردود غير المقبول ، على ما فيه من التفصيل المشهور ، ورواياته عندهما كلها عن قتادة بالعنعنة ، إلا لفظ للبخاري « عن قتادة عن أنس انه حدثهم أن

أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر»، وقتادة كان على فضله وسعة حفظه مدلساً ، فيحتمل أن يكون سمع هـذا الخبر عن أنس ممن لا يوثق به،وكلمة حدثهم ليست في قوة حدثنا وحدثني وسمعته وما في معناهن، وكما يحتمل أن يكون قتادة رواه عن أنس بواسطة يحتمل أن يكون أنس سمعه ممن لا يوثق به من التابعين أيضاً كما تقدم ، ٦ - وانه على ذلك معارض بنص القرآن وسنة الله في الرسل وأقوامهم والحديث المرفوع المتفق عليه في حصر آية نبوته ﷺ في القرآن كما تقدم .

وغرضنا من هذا ان مـا دلت عليه الدلائل القطعية من الآيات الكثيرة ، والحديث المتفق عليه في حصر آية نبوته في الوحي الذي أوحاه الله تعالى اليه وهو القرآن لا تقتضي الطعن في صدق أنس ولا في صدق قتادة لما ذكرنا من الاحتمال ، وهي مقدمة على مضمون حديثهما على كل حال ، بل لو وجد فيهما حديث صحيح السند مرفوع إلى النبي ﷺ ، لـكانت مقدمة عليه عند عدم إمكان الجمع بينها وبينه ، وكان هذا دليلاً على انه موضوع في الواقع، وإن عدلوا رجال سنده في الظاهر .

وإذ لم يصح هذا الحديث الذي انفرد به أنس في مراسيله على تقدير سماع قتادة منه ، فسواء عندنا أصح غيره مما رووه في انشقاق القمر أم لا، فإن غرضنا الأول من هذا البحث كله انه لا يوجد فيها حديث صحيح مخالف للقرآن ، لا لأجل المحاماة عن القرآن فإن القرآن فوق كل شيء وكل ما خالفه فهو باطل قطعاً . وإنما غرضنا الدفاع عن أنس فقتادة ثم عمن روى عنهما ما ذكر وسكت عليه ، ولا يهمنا بعد هذا أمر من قبِل الرواية واحتج بهـا وجعلها من دلائل النبوة ، لغفلتهم عن هذه الحقائق القطعية .

(ح) تفسير الآية .

إن لعناية المفسرين وغيرهم بتصحيح الروايات في انشقاق القمر سببين : أحدهما – تكثير دلائل النبوة بالمعجزات الكونية كما تقدم . وثانيهما – تفسير

« اقتربت الساعة وانشق القمر » بها ، وان أكثرهم ليتجرد من كل فهم ورأي وعلم باللغة وغيرها أمام ما دون هذه الرواية في تعدد طرقها ، وجلالة رواتها ، كما ترى في تفسير محيي السنة البغوي فمن دونه في العلم بالرواية خضوعاً وتسليماً لكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية والموضوعة .

فإذا أنت رجعت إلى لغة القرآن في معاجمها لتفهم الآية منهـــا دون هذه الروايات وجدت في لسان العرب ما نصه : والشق الصبح، وشق الصبح يشق شقاً إذا طلع . وفي الحديث « فلما شق الفجران أمرنا بإقامة الصلاة » يقـــال شق الفجر وانشق – إذا طلع، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه[1]، وانشق البرق وتشقق انفلق، وشقيقة البرق عقيقته وهو ما استطار منه في الأفق وانتشر اه. فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره ، ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر ، وقال الراغب في **مفردات القرآن**: « وانشق القمر » قيل انشقاقه في زمن النبي عليه السلام، وقيل هو انشقاق يعرض فيه حين تقرب القيامة ، وقيل معناه وضح الأمر اه. ونقله عنه صاحب التاج . وهذا الأخير هو المتبادر من الآية بنص اللغة ومعونة السياق ، لأن صيرورة القمر شقتين منفصلتين لا دخل لها في انذار المشركين الذي هو موضوع السورة ، ولم يسبق ان عد من آيات الساعة كانشقاق السماء وانفطار الكواكب، فلم يبق إلا انه بمعنى ظهور الحق ووضوحه بآيات القرآن .

والقول بأن معناه انه سينشق عند قيام الساعة مروي عن الحسن البصري وعن عطاء من التابعين ، والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي في القرآن كثير جداً في أخبـــار الساعة والآخرة وغيرهما ، وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا سحر القمر فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر » إلى قوله « مستمر » ، فهذه رواية ثالثة حملها بعضهم على انشقاق القمر وهو بعيد .

---

(١) نقل صاحب اللسان هذه العبارة في تفسير الحديث عن النهاية في شرح غريب الحديث.

obeikandi.com

وقد رد الآلوسي هذه الوجوه اللغوية او بعضها بقوله : وزعم بعضهم ان انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه ، وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه ، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما في قول النابغة :

فلما أدبروا ولهم دويٌ دعانا عند شق الصبح داعي

وزعم آخر ان معنى انشق القمر : وضح الأمر وظهر . وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ، ولا يلتفت اليه ، ولا أظن الداعي اليهما عند من يقر بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق ، ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق ، سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ، ومنشأ ذلك القصور التام ، والتمسك بشبه هي على طرف الثمام . ومع هذا لا يكفر المنكر بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصاً فيه ، والإخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره ، والله تعالى الموفق اهـ.

وقد فاته قول أهل اللغة : انشق البرق وانشق الصبح بمعنى طلع وبمعنى استطار نوره وانتشر في الأفق ، ومثله القمر في ذلك . فما أنكره وسماه مزاعم هو من نصوص اللغة ، وما صرفه هو عنها إلا اغتراره بالروايات في كون الانشقاق كان آية معجزة اقترحها الكفار فأجيبوا اليها ، ومنشأ ذلك غفلته عن كون الحديث في ذلك مرسلاً شاذاً عن مدلس ، وكونه مع هذا معارضاً بنصوص القرآن القطعية وما يؤيدها من الأحاديث المسندة المرفوعة إلى النبي ﷺ في كون آيته التي جعلها الله تعالى حجة نبوته وأمره بالتحدي بها في جملتها تارة وبعشر سور مثله ، وبسورة من مثله ، وبالاحتجاج ببعض ما اشتملت عليه تارات أخرى هي القرآن وحده ، وما كان ﷺ يرجو بهذا ان يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة إلا لأن هذه الآية أعظم وأظهر وأبهر وأقهر من كل آيات الأنبياء إجمالاً وتفصيلاً ، وقد فهم هذا المعنى وأدرك هذه الحجة بعض

حكمـــاء الافرنج ، فصرح بأن قراءة النبي ﷺ للقرآن ، كانت أقوى من كل معجزات الأنبياء جذباً إلى الإيمان .

وقد زعم الآلوسي وغيره ان قوله تعالى : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » حجة على ان المراد بالآية انشقاق القمر ، ولو كان كذلك لقال : فأعرضوا وقال سحر مستمر . وأما الشرط فللاستقبال او لبيـان الشأن . ولا علاقة بين انشقاق القمر ودعوى النبوة فيكون آية عليها . ولفظ الآية يطلق في القرآن على كل ما يدل على وجود الله ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وقدرتـه ورحمته وحكمته وعلى ما يؤيد به رسله . وأكثر ما يذكر فيه الإعراض عن الآيات في القرآن ، يراد به هذه الدلائل او آيات القرآن كقوله تعالى في النوع الأول « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقوله في النوع الثاني : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنهـا معرضين » وأما قولهم « سحر مستمر » فأول ما قالوه في القرآن وهو ما حكاه عنهم في سورة المدثر « ان هذا إلا سحر يؤثر » وهي ثالثة سورة نزلت بمكة او الرابعة على القول بأن الفاتحة أول ما نزل ، وفي معناها آية سبأ « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا إلا سحر مبين » وآية الزخرف «ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » .

وإنك لترى أوائل سورة الأنبياء بمعنى أوائل سورة القمر وهي « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محـدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسرّوا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » ؟

(ط) تأييد الاسلام في هذه المسألة وأمثالها .

إننا نختم هذا البحث بتنبيه قراء المنار لأمر عظيم الخطر والشأن وهو ان العلماء الذين تساهلوا بقبول روايات انشقاق القمر وجعلهـا آية كونية حسية

جعلت حجة على كفار مكة عندمـــا اقترحوها ، وتمحلوا في الأجوبة عن الاعتراضات العقلية الأصولية عليها ، فجاؤوا بما لا يقبله العاقل المستقل – إنمـا حملهم على ذلك حب تكثير المعجزات النبوية كما تقدم وتفنيد منكريها ، لأن العوام يفهمون من إعجازها ما لا يفهمون من إعجاز القرآن ، وقد تغيرت الحال في هذا الزمان الذي كثر فيه استقلال الفكر ورفض التقليد في أكثر المتعلمين ، فصارت هذه الروايات تعد طعناً في علم المسلمين وعلمائهم ، ويخشى أن تعد طعناً في الاسلام نفسه، والحق أنها ليست من أصول الإسلام ولا من فروعه ، فأصول العقائد الإسلامية لا تثبت إلا بدليل قطعي ، وهذا أمر مجمع عليه بين المسلمين ، والدليل القطعي إما عقلي وإمـا نقلي ، والنقلي هو النص القطعي الدلالة عن الله ورسوله ،والآية ليست قطعية الدلالة على كون الانشقاق هو صيرورة القمر فلقتين منفصلة إحداهما عن الأخرى ، كما اعترف بذلك الذين فسروها بذلك وآخرهم الالوسي ، وقد بينا نحن ان دلالتها على ما ذكر مرجوحة ، فما كانت لتخطر على بال أحد لولا تلك الرواية المنقوضة بنص القرآن والحديث المرفوع المتفق عليه .

وسائر الروايات ليس فيها شيء يصلح لتفسير الآية به إلا من وجه بعيد لا يعد نصاً ولا ظاهراً فيه ، وهو عد انشقاق القمر من علامات قرب الساعة بالتبع للآيات في انشقاق السماء وانفطار الكواكب او الدخول في عموم الثاني ، إذ لم لم يذكر القمر في آيات الساعة إلا في قوله تعالى : « فاذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر »[1] الخ .

ومن الدفاع عن الإسلام وعلماء المسلمين بحق أن يقـــال لهؤلاء المستقلين في الفكر ان الاسلام لا يكلفكم أن تؤمنوا برواية انفرد بها قتادة المدلس عن أنس في خبر قد علم باليقين انه لم يحدث فيه عن رؤية ومشاهدة بل عن سماع من مجهول يجوز أن يكون كاذباً ، ولا يكلفكم الإسلام أن تؤمنوا بأن الأصل في مرسل الصحابي أن يكون مقبولاً ، لأن هذا إنما يكون عند قائليه فيما لا اعتراض ولا

(١) سورة القيامة رقم ٧٥ الآية ٧ .

علة في متنه ولا شذوذ ، وحديث أنس خالف جميع الروايات عن غيره . بل الإسلام ينهاكم أن تقبلوا حديث أي إنسان عن صحابي وغيره يخالف نص القرآن ، وسنن الله في الأكوان .

ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي والعقل ، أهون من مخالفة زيد وعمرو ، وصدق عقله أن تقع هذه الآية ولا يحدث أحد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤيتها والاحتجاج بها فضلاً عن تواترها ، فليس له أن يجعلها من عقائد الاسلام وينفـّر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه .

(ي) ذيل في مسألة الثقة بالروايات .

قد يحيك في صدور بعض الناس بعد ما تقدم مسألة الثقة بالروايات وعدم الثقة بها ، يقول بعض الناس إذا بطلت الثقة بهذه الروايات في هذه المسألة على كثرتها ، بطلت الثقة بسائر روايات كتب السنة في غيرها .

ونقول لهذا القائل: أولاً — ان تحقيق الحق بالدليل هو مقدم في الإسلام على توثيق الرواة وتقليد العلماء . وثانياً — ان كثرة هذه الروايات إلى قلة بعد ما علمت من اضطراب أسانيدها ومتونها وعللها ، ورب حديث واحد مروي من طريق واحد أقوى دلالة منها ، كحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلاً . فجملة القول ان عدم الثقة بها لا يقتضي عدم الثقة بغيرها ، وإنما يقتضي ان في كل ما عدا القرآن من الكتب مسائل تحتاج الى التمحيص مصداقاً لقوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ».ثالثاً — ان جملة الروايات إنما تدل على ان بعض الصحابة وبعض الكفار رأوا القمر قد انشق فصار فرقتين في لحظة من الزمان ، ولا ضرر في تصديق ذلك مهما يكن سببه ، وإنما الضرر ان يجعلوه آية مقترحة جعلها الله حجة على صحة نبوة رسوله ﷺ ، وانه يجب على مسلم او كافر يريد الإسلام ان يؤمن بذلك «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

انتهى الجزء الخامس من فتاوى الإمام
محمد رشيد رضا ، ويليه الجزء السادس
وأوله « جوابنا عن أسئلة الربا »
والحمد لله رب العالمين

obeikandl.com